دار المشرق

المَشرِقُ الرَقَمِيَّة

مجلّة إلكترونيّة تصدر مرّتين في السنة عن دار المشرق
العدد الثالث، كانون الأول ٢٠١٣

مقابلة البابا فرنسيس
نشرتها المجلّات الثقافيّة اليسوعيّة
وحقّقها الأب أنطونيو سپادارو اليسوعيّ

نقلتها إلى العربيّة آن ماري شكّور

لقد استقبلَ البابا فرنسيس، أيّام ١٩ و٢٣ و٢٩ آب ٢٠١٣، الأب أنطونيو سپادارو اليسوعيّ، مدير مجلّة الـ *Civiltà Cattolica*، ليُجريَ له الأخير ثلاث مقابلاتٍ مطوَّلة. ويمثّلُ الأب سپادارو مجمل المجلّات الثقافيّة اليسوعيّة، الأوروبّيّة والأميركيّة، وقد كان المسؤولون عنها حضّروا عددًا وافرًا من الأسئلة.

إنّ البابا فرنسيس، في الواقع، يرفضُ كلَّ مقابلة تُطلب إليه. فلا بدّ من الاعتراف بفائدة نصٍّ مماثل يدعمُ معرفتَنا هذه شخصيّةَ البابا، ويسمحُ أن نتبيّنَ الخطوطَ العريضة التي تميّزُ روحانيّته وفِكرَه اللاهوتيّ.

حدّد البابا فرنسيس موعدًا لي عند الساعة العاشرة من يوم الإثنين ١٩ آب في بيت القدّيسة مرتا بِروما، وأنا، بحسب عادةٍ موروثة من والدي، وصلتُ قبل الوقت. أجلسَني بعضُ الموكَل إليهم استقبالي في قاعةٍ صغيرة. ولم يدُم انتظاري

طويلًا. بالكاد تسنّى لي الوقت لأتذكّر كيف وُلِدَتْ في لشبونة، أثناء اجتماعٍ ضمَّ مسؤولين عن مجلّاتٍ يسوعيّة، وبالتوافُق، فكرةُ نَشر مقابلة البابا؛ كنّا، حينها، قد تصوّرنا بعضَ الأسئلة المُعبِّرة عن مصالح الجميع.

بعد دقيقتَين، طُلِب إليَّ التوجُّه نحو المصعَد. وعند خروجي، كان الحبرُ الأعظم بانتظاري. فراودَني عندها شعورٌ جميل: خُيِّل إليّ أنّي لم أعبُر أيَّ عتبة. دخلتُ غرفتَه وجلستُ على أحد المقاعد. أمّا هو فاختار كرسيًّا عاليًا وقاسيًا نظرًا إلى معاناته بعضَ المشاكل الصحّيّة في ظهره. وجدتُني في قاعةٍ متواضعة بلا زخرفة؛ إذ المكتبُ يشغلُ حيّزًا صغيرًا. دهشتُ لبساطة الأثاث والأغراض. رأيتُ كتبًا، وبطاقات، وتُحَفًا من بينها أيقونةٌ للقدّيس فرنسيس، وتمثالٌ لسيّدة «لوخان»، شفيعة بلاد الأرجنتين، وصليب، وتمثال للقدّيس يوسف أثناء حُلمه، شبيهٌ جدًّا بالذي كنتُ قد لمحتُه في غرفة البابا حين كان مديرًا ورئيسًا إقليميًّا في مدرسة «القدّيس مَكسيمُس دي سان ميغيل». إنّ روحانيّة بِرغوغليو، بحسب قوله، ليست مكوّنة من «طاقاتٍ منسجمة منظَّمة»، بل هي عبارة عن وجوهٍ بشريّة: وجه المسيح، والقدّيسَين فرنسيس ويوسف، ومريم.

إستقبلني البابا بابتسامته تلك التي، حتّى اللحظة، جالت العالم عدّةَ مرّاتٍ وأنعشت القلوب. فبدأنا بالكلام على أمورٍ شتّى، مركّزَيْن بصورة خاصّة على رحلته إلى البرازيل، وهو يعتبر هذا البلد نعمةً حقيقيّة. سألتُه إن كان استراح قليلًا، فأجاب: نعم، وقال إنَّه على ما يُرام، وأنّ أيّام الشبيبة العالميّة كانت في عينَيه «سرًّا» بكلّ معنى الكلمة، فهو ليس متعوِّدًا أن يتوجّه بالكلام إلى هذا العدد من الأشخاص. قال: «إنّي أتمكّنُ من النظر إلى الناس كلٍّ على حِدة، ومن التعاطي، شخصيًّا، والذين يقفون أمامي. لستُ متعوِّدًا مواجهةَ الجَماهير». فقلتُ له عندها إنّ ذلك بادٍ عليه، بالفعل، وإنّ له وقعًا مؤثِّرًا في الجميع. فهو، حين يكون وسط الحشود، ينظرُ إلى الأشخاص مباشرةً، فردًا فردًا. وآلاتُ التصوير التلفزيونيّة، إذ تنقلُ تلك المَشاهد، تجعلُنا نلاحظ الأمر. أمّا البابا فيخالجُه شعورٌ بالحرّيّة في بقائه على اتّصالٍ مباشَر، أقلّه بَصَريّ، بمَن حولَه. لقد أفرحته كلماتي جدًّا، كما أفرحَه أن يستطيع الحفاظَ على طبيعته، وألّا يُضطَرَّ إلى تشويه أسلوبه

الاعتياديّ في محادثته الآخرين، وإن كان أمامه الملايين، كما حصل على شاطئ كوباكابانا.

ثمّ تطرّقنا إلى موضوعاتٍ أخرى. وإذ كان يعلّقُ على أحد مؤلّفاتي، قال لي إنّ المفكِّرَيْن الفرنسيَّيْن المعاصِرَين المفضّلَين لديه هما هنري دو لوباك وميشيل دو سيرتو. وبعدها، اتّخذَ كلامي طابعًا أشدَّ شخصيّةً، وهو أيضًا، فقد حدّثَني عن نفسه، ولا سيّما عن انتخابه حَبرًا أعظم؛ حين أدركَ أنّه قد يتمُّ اختيارُه، يوم الأربعاء ١٣ آذار، ساعة الغداء، أحسّ بسلامٍ عميق لا يُفسَّر يتملّكُه، بعَزاءٍ داخليّ تشوبُه غشاوة كثيفة. وقد رافقته هذه المشاعر طوالَ حفل الانتخاب.

كنتُ لأتابعَ الحديث بهذه الأُلفة إلى البابا فرنسيس ساعاتٍ طويلة، ولكن سرعانَ ما عدتُ إلى أوراقي وأسئلتي المدوَّنة وأدَرْتُ مُسجِّلة الصوت. بدأتُ بتوجيه الشكر إليه باسم جميع مدراء المجلّات اليسوعيّة الذين كانوا سيقومون بنشر هذه المقابلة. أذكرُ أنّه، قبل بدء الجلسة التي خصّها ليسوعيّي مجلّة الـ*Civiltà Cattolica*، كان قد أعلمَني بالصعوبة القصوى التي يواجهُها بشأن مشاركته في المقابلات. فهو يفضّلُ أن يُمنَح الوقت ليفكّر قبل أن يُجيب عن الأسئلة المطروحة عليه، علمًا أنّ الإجابات تأتيه في مرحلةٍ لاحقة. قال: «لم أعرف نفسي حين أجبتُ عن أسئلة الصحافيّين في الطائرة عند عودتي من ريو دي جانيرو». أمّا مقابلتنا هذه فسنحت له فرصةَ أن يوقِفَ حديثَه عدّة مرّاتٍ ليُضيفَ معلومةً إلى إجابته السابقة. إنّ حديث البابا فرنسيس شبيهٌ بتدفُّقٍ بركانيٍّ من الأفكار المترابطة. فكيف لي أن أُقاطعَ حوارًا يجري كماء الينبوع، وأنا أدوِّنُ المعلومات على الورق؟ من الواضح أنّ البابا فرنسيس متعوِّدٌ إجراء المحادثات أكثر من ممارسة التعليم.

مَن هو خورخيه ماريو بِرغوغليو؟

قلتُ بطريقة مفاجئة، تاركًا مسارَ الأسئلة المقرَّر مسبقًا: «مَن هو خورخيه ماريو بِرغوغليو؟». وإذ حدّقَ بي البابا صامتًا، سألتُه إن كنتُ مخوَّلًا مبادرته بذلك... فردَّ بالإيجاب قائلًا: «لستُ أدري ما هو التعريفُ الأصحّ... أنا إنسانٌ

خاطئ. إنّه التعريفُ الأصحّ... ليس المقصودَ أسلوبٌ كلاميّ، أو نوعٌ من الفنّ الأدبيّ. أنا إنسانٌ خاطئ».

لقد غرقَ في التفكير والتأمّل، وكأنّه ما كان متوقّعًا هذا السؤال، وكان عليه أن يذهب عميقًا في التأمُّل. فتابع قائلًا:

«بَلا، يُمكنني القول إنّني أتمتّع بالقليل من الحيلة، وإنّي مُناوِرٌ ماهر، ولكنّني أيضًا، في الحقيقة، قريبٌ إلى البساطة. كلُّ هذا صحيح، إلّا أنّ الفكرة الفُضْلى التي أستخلصُها، فكرةً عميقة أشعر بأنّها الأقرب إلى الحقيقة، هي التالية: أنا إنسانٌ خاطئ نظرَ إليه الربّ». وتابع: «أنا رجلٌ وقع عليه نظرُ الربّ. أمّا شعاري «يختار وهو يرحم (Miserando atque eligendo) «فلطالما عرفته صائبًا ملائمًا لذاتي[1]. إنّ اسمَ الفاعل اللاتيني Miserando (راحِمًا) يستحيلُ، في رأيي، نقلُه إلى الإيطاليّة كما إلى الإسبانيّة. فيروق لي ترجمته بواسطة اسم فاعلٍ آخر لا وجود له في الأساس Misericordiando :(وهو يقوم بفِعل رحمة)».

وتابع البابا فرنسيس تفكيرَه وقال، مغيِّرًا موضوعَ الحديث بطريقةٍ لم أفهمها في تلك اللحظة: «لا أعرفُ روما. أعرفُ القليل، مثلًا بازيليك القدّيسة مريم (إحدى الأربع الأساسيّة في روما) Sainte Marie Majeure التي قصدتُها كثيرًا». فضحكتُ وقلتُ: «لاحظنا ذلك جيّدًا، قداسة البابا!». فقال: «بالضبط، أعرفُ هذه البازيليك، وساحة القدّيس بطرس. ولكن، عندما أتيتُ إلى روما، سكنتُ شارع «سكروفا». وكنتُ أنطلقُ منه لأزورَ، وبشكلٍ دائم، كنيسةَ القدّيس لويس، ولأتأمّلَ اللوحةَ التي تصوّرُ دعوة القدّيس متّى، للرسّام لو كارافاج [رسّام إيطاليّ من القرن السادس عشر]». عندها بدأتُ أفهمُ ما قصدَه البابا.

«إصبع يسوع... الدالّة إلى متّى. هكذا أنا. هكذا أشعر، وكأنّي مكان متّى». فجأةً، بدا البابا قد وجد الصورة التي يتخيّلُها معبِّرةً عن ذاته: «إنّ فعلَ متّى يصدمُني: يُمسِكُ بنقوده كمَن يقول: «لا، أنا لا! هذه النقودُ مُلكي أنا!».

---

[1] إنّ شعار البابا فرنسيس مُستوحًى من عظات القدّيس بيدُس المكرَّم الذي، وهو يفسّر الحدث الإنجيليّ الخاصّ بدعوة القدّيس متّى، كتب: «رأى يسوع جابيَ ضرائب، وإذ نظر إليه بحبٍّ واختاره، قال له: إتبعني».

بالضبط. هذا ما أنا عليه: إنسانٌ خاطئ نظرَ إليه الربّ. وهذا ما قلتُه حين سألوني إن كنتُ أقبلُ انتخابي للحبريّة». ثمّ همس قائلًا: «أنا خاطئ، ولكن، وبرحمة ربّنا يسوع المسيح وصبره اللامتناهي، أقدّمُ ثقتي، وأقبلُ بروح توبة».

لمَ صارَ بِرغوغليو يسوعيًّا؟

فهمتُ أنّ ما قاله البابا، شهادةً على قبوله وثقته، عبارةٌ أيضًا عنده عن «بطاقة» هويّة. فما من شيءٍ يُضافُ بعد. تابعتُ وأنا أطرحُ السؤال الأوّل الذي كنتُ قد دوّنتُه: «قداسة البابا، ما الذي دفعكم إلى الالتحاق بالرهبانيّة اليسوعيّة؟ وما الذي لفتَكم في تلك الجمعيَّة؟». فأجاب:

«كنتُ أريدُ المَزيد. ولكنّي لم أعرف ماذا. إلتحقتُ بالإكليريكيّة. أُعجِبتُ بالدومينيكيّين، وصادقتُ بعضَهم. ولكن بعدها قمتُ باختيار الرهبانيّة التي عرفتُها حقَّ المعرفة، إذ كانت الإكليريكيّة قد سُلِّمت إلى أيدي اليسوعيّين. ولفتني في هذه الرهبانيّة أمور ثلاثة: الطابع الرسوليّ، وروح الجماعة، وتطبيق النظام. أستغرب هذا، كوني أفتقرُ كلّيًّا إلى النظام منذ صغري. ولكنّ التزامَ اليسوعيّين به، وطريقتهم في تقسيم وقتهم، قد أثّرا فيّ أشدَّ تأثير.

«بالإضافة، إنّي أعتبرُ مبدأَ الجماعة أمرًا أساسيًّا. فلطالما بحثتُ عن جماعةٍ أعيش حياتي في كنَفها، إذ بصفتي كاهنًا، لم أتصوّر أنّي قد أتمكّن من العيش بمفردي. لذا فأنا هنا، في دار القدّيسة مرتا. عندما تمّ انتخابي، كنتُ أسكنُ، بالمصادفة، الغرفة رقم ٢٠٧. والغرفة التي نحن فيها الآن، ورقمها ٢٠١، كانت غرفةَ ضِيافة. فقرّرتُ الانتقالَ إليها لأنّني، إذ بدأتُ أشغلُ الجَناحَ البابويّ، سمعتُ صوتًا واضحًا في داخلي يقولُ «لا». إنّ جناحَ القصر الرسوليّ البابويّ بعيدٌ عن الفخامة والتَرَف. هو قديم، بادٍ عليه الذوقُ الرفيع، ولكنّه ليس فخمًا. ومع ذلك، يشبهُ قِمْعًا مقلوبًا. صحيحٌ أنّه كبيرٌ وشاسع، إلّا أنّ مدخلَه ضيّقٌ جدًّا لا يسعُ أكثرَ

من شخصٍ واحد. وأنا لا أقوى على العيش بدون الآخرين. أحتاجُ إلى العيش معَ الناس».

وبينما كان البابا يتحدّثُ عن مفهومَي الرسالة والجماعة، تذكّرتُ، عبر كلماته، وثائقَ الرهبانيّة اليسوعيّة التي تأتي على ذكر موضوع «الجماعة من أجل الرسالة».

ما يعني ليسوعيّ أن يتبوَّأ السدّة البابويّة؟

أردتُ متابعة الحديث على المسار نفسه، فطرحتُ على البابا سؤالًا يخصّ كونه اليسوعيّ الأوّل الذي تمّ انتخابُه أسقفَ روما: «في ضوء الروحانيّة الإغناطيّة، ما رأيُكم في خدمة الكنيسة العالميّة التي دُعيتم إلى تسلّمها؟ ماذا يعني انتخابُ يسوعيٍّ بابا؟ وأيٌّ من نقاط الروحانيّة الإغناطيّة تساعدكم أفضل من سواها على تأدية خدمتكم هذه؟».

أجاب: «هو التمييز؛ وقد كان أكثر ما شغل القدّيس إغناطيوس. ففي نظره كان وسيلة يتسلَّح بها للتعرّف إلى الربّ أكثر فأكثر واتّباعه عن قُرب. لطالما أُعجِبتُ بالحكمة التي تصفُ رؤيا إغناطيوس: «يجب أن لا يُحَدّ المرء في ما هو عظيمٌ أو كبير، بل أن يكتفي بما هو متواضع أو صغير»، وهذا ما يحمل طابعًا إلهيًّا. لقد تأمّلتُ كثيرًا في هذه العبارة من أجل ممارسة وظيفتي رئيسًا: ألّا أكون محصورًا بالمنْزلة الأكبر، بل أن أكونَ قادرًا على الإقامة في الموضع الأصغر. إنّ فضيلة مفهومَي الكِبَر والصِغَر هذه هي ما أسمّيه سمُوّ النفْس. إذ انطلاقًا من حيث نكون، تجعلنا دائمًا نتطلّعُ إلى الأُفُق. هي عبارة عن القيام بأمور الحياة اليوميّة البسيطة بقلبٍ كبيرٍ مفتوحٍ على الله والآخرين. هي رَفعُ قيمة الأشياء البسيطة داخل آفاقٍ شاسعة، آفاق ملكوت الله.

«وهذه الحكمة تُقدّمُ المعطيات الضروريّة بهدف تجهيز النفس من أجل تمييزٍ أفضل، ومن أجل التِماس الشؤون الإلهيّة انطلاقًا من «رأيٍ خاصّ». عند

القدّيس إغناطيوس، على الإنسان بتجسيد المفاهيم والمبادئ الكُبرى من طريق أخذ ظروف الزمان والمكان والأشخاص بالاعتبار. أمّا يوحنّا الثالث والعشرون، على طريقته الخاصّة، فكان يحكمُ بتأهُّبٍ داخليٍّ مُماثِل، مُردِّدًا القولَ التالي: علينا رؤية كلّ شيء، والمرور على الكثير من الأمور، وتقويم بعضِها. فهو، إذ كان يُبصِرُ كلّ شيء، الأفق الأكبر، كان يختارُ التصرّف في ما هو أبسط. يمكن أن تكون لدينا مشاريعُ ضخمة وأن نحقّقَها بالاعتماد على الأمور الزهيدة الضئيلة. كما يمكنُ اللجوء إلى وسائلَ ضعيفة تتبيّنُ أشدّ فعّاليّةً من الأقوى، وهذا ما يؤكّده القدّيس بولس في **رسالته الأولى إلى أهل قورنتس.**

«وهذا التمييزُ يتطلّبُ وقتًا. كثيرون هم مَن يظنّون أنّ التغييرات والتعديلات يمكن أن تتحقَّق في وقتٍ وجيز. وأنا أعتقد، بالعكس، أنّ تحديدَ أُسُسِ تغييرٍ حقيقيّ وفعّال يتطلّبُ وقتًا. وما هذا الوقت غير وقت التمييز؟ ولكن أحيانًا، قد يقتضي التمييز القيام فورًا بما كان متروكًا لوقتٍ لاحق. وهذا ما حدث لي طوال الأشهُر الأخيرة. إنّ التمييز يتحقّق دائمًا بحضور الربّ، عبر الانتباه إلى علاماته وإلى ما يحصل، كما إلى شعور الناس ولا سيّما الفقراء. وخَياراتي، حتّى تلك التي أواجهها في كلّ يوم، كقيادة سيّارة متواضعة مثلًا، مرتبطة بتمييزٍ روحانيّ يستجيبُ لضرورةٍ مُلِحّة تولد ممّا يحدث، من الأشخاص، من رؤية علامات الأزمنة. بالتالي، فالتمييزُ الذي أقوم به في الربّ يُرشِدُني في طريقة تسلُّمي الحكم.

«بالمقابل، أحذرُ اتّخاذَ بعض القرارات بطريقةٍ ارتجاليّة. وغالبًا ما أحترس من القرار الأوّل، أي أوّل ما يخطرُ ببالي عندما يكون عليّ بتُّ أمرٍ ما. فالقرار الذي أتّخذُه، بالإجمال، يكونُ خاطئًا. لذا أحتاجُ إلى التمهُّل، وإلى إجراء تقييمٍ داخليّ، مهما استغرق ذلك من الوقت؛ إنّ التعقُّل في التمييز يعوّض من غموض الحياة، ويساعد في إيجاد الوسائل الأشدّ مُلاءمةً، علمًا أنّها وسائل لا تتماثلُ بالضرورة مع ما يبدو عظيمًا أو قويًّا».

الرهبانيّة اليسوعيّة

يُعَدّ التمييز إذًا عمودًا من أعمدة روحانيّة البابا فرنسيس؛ به هو يسوعيٌّ حقًّا. سألتُه كيف للرهبانيّة اليسوعيّة أن تكون في خدمة الكنيسة اليوم، وما دورها الخاصّ في ذلك، والمَخاطر التي قد تواجِهُها.

قال: «إنّ الرهبانيّة، في الأصل، مؤسّسة تعيشُ حالةَ شَدٍّ مستمرّة؛ فاليسوعيّ رجلٌ متجرّد، بل الرهبانيّة نفسُها متجرّدة، بحيثُ إنّ مركزها هو المسيح وكنيسته. بالتالي، إن حافظتْ على كلٍّ منهما بهذا الشكل، فيكونُ لديها نُقطتا توازُن أساسيّتان تجعلانها لا تعيشُ لنفسها. في حين أنّها، إن اعتبرت نفسَها نقطةً مركزيّة بحدّ ذاتها، وظنّت بُنيتَها مَتينة، «مُسلَّحة» كِفاية، فعندها تجدُ نفسها في خطر الشعور الزائف بالثقة المفرَطة والاكتفاء الذاتيّ. لذا على الرهبانيّة أن تسعى بلا كلَل إلى تعظيم مجدِ الله وهو الكنيسة، عروس المسيح ربّنا الحقيقيّة، المسيح الملك مَن يستميلُنا، وإلى مَن نقدّم كَيانَنا كلّه وجهودَنا كافّةً، بالرغم من كوننا آنيةً من فخّار، غير صالحين. إنّ حالةَ الشدّ هذه تحثُّنا باستمرار على التجرّد من أنفسنا وإفراغ الذات. أمّا «كشف الضمير»[٢] فيُعَدّ الوسيلة الأهمّ، الأبويّة والأخويّة في آن، التي تُجبر الرهبانيّة على التجرّد، بالتحديد لأنّها تساعدها على إفراغ ذاتها من أجل الرسالة».

بهذا أشار البابا إلى نقطةٍ معيّنة من نقاط دستور الرهبانيّة اليسوعيّة، حيث نقرأ أنّ على اليسوعيّ أن «يكشفَ عن ضميره»، أيْ عن الحالة الداخليّة التي يختبرها، بطريقة تسمحُ لرئيسه الأعلى أن يكون أشدَّ وعيًا وتأنّيًا قبل إطلاقه لخدمة الرسالة.

ثمّ تابع قائلًا: «ولكن يصعب الكلام على الرهبانيّة. إن تحدّثنا بصراحة مطلقة، نقع في الريبة والالتباس. لذا فلا نستطيع أن نُخبِرَ عنها إلّا بالأسلوب السرديّ؛ يمكن تطبيق عمليّة التمييز على ماجريات الوقائع فقط، وليس على شرحٍ فلسفيّ أو آخر لاهوتيّ، وهذان، بالعكس، يخضعان للنقاش والمُباحثة. وإنّ أسلوب الرهبانيّة لا يقتضي النقاش، بل بالحريّ التمييز الذي، بكلّ تأكيد، يقتضي النقاشَ ما إن يُشرَع تطبيقُه. وإذ يُعرَف عن الجوّ الصوفيّ أنّه لا يدركُ حدودَه

[٢] يجري أثناء اللقاء السنويّ الذي يجمع اليسوعيّ برئيسه.

على الإطلاق ولا يُغلِقُ الفِكر، فإنّ على اليسوعيّ أن يبقى إنسانًا في حالة بحثٍ مستمرّ، فلا يكتفي بما حصّله فكريًّا. وثمّة أزمنة مرّت بها الرهبانيّة كان فيها الفكرُ مُغلَقًا جامدًا، يميلُ إلى الزهد والتعليم أكثر منه إلى التصوّف، وقد آلَ هذا الانحراف إلى إلغاء الرهبانيّة».

في هذا يستند البابا إلى خلاصاتٍ عمليّة من دستور الرهبانيّة حلّت محلّه شيئًا فشيئًا، منذ صياغتها في القرن العشرين. طوال فترةٍ من الوقت، طُبع تكوين اليسوعيّين بهذه الخلاصات، بحيث إنّ بعض هؤلاء ما عادوا يقرأون الدستور الذي هو نصّ الرهبانيّة التأسيسيّ. بالتالي، في رأي البابا، قد قام اليسوعيّون بتقديم القوانين على الروح، مستسلمين لتجربة إيضاح موهبة رهبانيّتهم إيضاحًا مُبالَغًا فيه.

وتابع: «إنّ اليسوعيّ يفكّر بشكلٍ مستمرّ، وهو ينظر إلى الأفق حيث يجب أن يتوجّه، مُحافِظًا على المسيح محور حياته. في ذلك تتجلّى قوّتُه الحقيقيّة. وهذا ما يدفع الرهبانيّة إلى بحثٍ دائم، خَصبٍ وخلّاق. عليها لذلك، واليوم أشدّ من أيّ وقت مضى، أن تعتمدَ التأمُّل في العمل؛ عليها أن تعيشَ إلى جانب الكنيسة المنتشرة جمعاء، بصفتها شعبَ الله وأمَّنا الكنيسة المقدّسة. وبالتأكيد، يتطلّب ذلك الكثيرَ من التواضُع، والتضحية، والشجاعة، خاصّةً في أحوال سوء التفاهم، أو الريبة والافتراء، ولكنّه السلوك الأسخى والأفضل. فلنتذكّر حالات الشدّ في الماضي بخصوص الطقوس الصينيّة، وكذلك الطقوس المالاباريّة، وأثناء إخضاع الباراغواي.

«لقد كنتُ بنفسي شاهدًا على أحوال سوء التفاهم ومشاكل عانتها الرهبانيّة مؤخَّرًا. كانت أوقاتًا صعبة، خاصّةً عندما اتّصل الأمر بتعميم النذر الرابع على جميع اليسوعيّين، وهو نذر طاعة البابا، ولم يحصل هذا[٣]. إنّ ما كان يُشعِرُني بالاطمئنان في زمن رئاسة الأب أرّوبِه هو كونه رجلَ صلاة. إذ كان يمضي

[٣] إشارة إلى منافشات أقيمت لمناسبة مجمع الرهبانيّة اليسوعيّة العامّ الثاني والثلاثين (١٩٧٥). وكان الأب أرّوبه، وقتذاك، رئيسًا عامًّا.

ساعاتٍ طويلة مصلِّيًا. أذكرُه جالسًا على الأرض يصلّي كما يصلّي اليابانيّون. لهذا كان يتحلّى بسلوكٍ صائبٍ صالح، ولطالما اتّخذَ القرارات المناسبة».

المثالُ الأعلى: بطرس فاڤر، «الكاهنُ المُصلَح»

في تلك اللحظة من المقابلة، سألتُ نفسي إن كان مِنْ بين اليسوعيّين، منذ بدايات الرهبانيّة إلى اليوم، مَنْ أثَّر في البابا على نحوٍ خاصّ. فسألته عن أسماء هؤلاء، وعمّا جذبه إليهم بالتحديد. عندها بدأ بذِكر إغناطيوس وفرنسيس – كسفاريوس، ثمّ توقّفَ مطوَّلًا على شخصيّةٍ معروفة خاصّةً عند اليسوعيّين، الطوباويّ بطرس فاڤر (١٥٠٦–١٥٤٦)، من منطقة «ساڤوا». إنّه أحد رفاق القدّيس إغناطيوس الأوائل، بل في الحقيقة هو الأوّل، مَن تقاسم وإيّاه الغرفة نفسها وقتَ كانا معًا طالبَين في جامعة «السوربون»، وقد انضمّ إليهما طالبٌ ثالث، فرنسيس – كسفاريوس. أمّا بطرس فاڤر فأُعلِن طوباويًّا، يوم الخامس من أيلول ١٨٧٢، على يد بيوس التاسع. ودعوى إعلان قداسته جارية حاليًّا.

كما أشارَ البابا إلى نسخة مذكّرات فاڤر [الإسبانيّة]، وقد سلّمَ تحقيقَها إلى يسوعيَّيْن متخصِّصَيْن بذلك: ميغيل أ. فيوريتو وخايمه هـ. أمادِيو، عندما كان رئيسًا إقليميًّا، مُضيفًا أنّه فضّل نسخةَ ميشيل دو سيرتو. فسألته عندها عن سبب تأثّره بفاڤر، وعن ميزاته الشخصيّة التي تُعجِبُه أكثر من سواها. فقال:

«كان يحاورُ الجميع، حتّى البعيدين عن الرهبانيّة، وخصومها؛ كانت تقواه بسيطة متواضعة، ولربّما تحلّى ببعض السذاجة. كما كان يحضرُ بشكلٍ فوريّ إن طُلب إليه ذلك. عرفتُ عنه قدرتَه على تمييز داخليٍّ واعٍ، كما كان رجلَ القرارات المهمّة والصعبة، وفي الآن نفسه رجُلَ لِينٍ ووَداعة إلى حدٍّ بعيد...».

وبينما كان البابا فرنسيس يعدِّدُ مَزايا يسوعيِّه المفضّل الشخصيّة، بدأتُ أفهمُ كم كان هذا الرجل، في نظره، مِثالَ حياة. أمّا ميشيل دو سيرتو فيقول في فاڤر «الكاهن المُصلَح» الذي ترتبط عنده كلٌّ من التجربة الداخليّة، وأسلوب التعبير عن العقيدة، والإصلاح البُنيويّ، ارتباطًا متينًا. فبدا لي أنّ البابا فرنسيس يَستقي من هذا الأسلوب بالتحديد في الإصلاح.

وتابع تأمُّلَه في حقيقة الشخصيّة المؤسِّسة هذه قائلًا:

«إنّ إغناطيوس رجلٌ متصوِّف، وليس متقشِّفًا. أغضبُ جدًّا عندما يُقال إنّ **الرياضات الروحيّة** هي إغناطيّة فقط لأنّها مورِست في الصمت. في الواقع، يمكنها أن تتّسم بطابعٍ إغناطيّ صرف في الحياة اليوميّة أيضًا، وخارج الصمت. إنّ فكرة التركيز على مبدأ التقشّف والصمت والعِقاب ليست إلّا انحرافًا طال الرهبانيّة أجمع، وخصوصًا في الوسط الإسبانيّ. أمّا بشأني فأنا قريبٌ إلى تيّار التصوّف، تيّار لويس لالّومان وجان–جوزيف سوران. كما وأنّ بطرس فاڤر كان متصوّفًا».

الخبرة في الحُكم

بمَ اتّسمت تجربةُ الحكم عند الأب بِرغوغليو، حين كان رئيسَ دير ثمّ رئيسًا إقليميًّا في الرهبانيّة اليسوعيّة؟ بما أنّ أسلوب الحكم في الرهبانيّة اليسوعيّة يقتضي قرارًا من الرئيس العامّ، وفي الوقت نفسه الأخذ برأي مستشاريه، سألتُ البابا: «أتظنّون أنّ تجربتكم الماضية في الحكم يمكن أن يفيدَ منها عملُكم الحاليّ في تولّي أمر الكنيسة الجامعة؟». وبعد برهةٍ من التفكير، قال البابا، محافِظًا على هدوئه، وقد بدا أشدّ جدّيّة:

«في الحقيقة، عندما كنتُ رئيسًا في الرهبانيّة، لم أتصرّف دائمًا بهذا الشكل، أيْ لم أقم، بحسب اللزوم، بالاستشارات الضروريّة. وهذا لم يكن بالأمر الحسَن. ففي البداية، سيطرت الشوائبُ على طريقتي في الحكم بصفتي يسوعيًّا. كانت أوقاتًا صعبة مرّت بها الرهبانيّة، إذ كان جيلٌ من اليسوعيّين بكامله قد رحل. هكذا وجدتُ نفسي رئيسًا إقليميًّا في سنٍّ مبكّرة: كنتُ حينها في السادسة

والثلاثين. جنون! كان عليّ مواجهة أوضاعٍ صعبة، وكنتُ أتّخذُ قراراتي بشكلٍ فُجائيٍّ وفرديّ. ودعني أذكر لكَ أمرًا مهمًّا: عندما أوكِلُ إلى أحدهم مهمّة، أتّكلُ عليه اتّكالًا مطلقًا؛ لذا فإن اقترف خطأً فاضحًا، أسترجعُ الثقةَ التي كنتُ قد سلّمتُه إيّاها. وهكذا ضاقوا ذرعًا بروح التسلّط هذه؛ لقد آلت بي طريقتي التسلّطيّة والسريعة في اتّخاذ القرارات إلى مواجهة مشاكل جمّة، بالإضافة إلى اتّهامي بأنّي مُحافِظٌ متشدِّد. فعشتُ أيّامًا من الأزمات الداخليّة العميقة أثناءَ مُكوثي في قُرطُبة. هكذا إذًا؛ لا، لم أكن طوباويًّا على الإطلاق، ولكنّي لم أكن قطّ محافِظًا. إنّ أسلوبي التسلُّطيّ في اتّخاذ القرارات ما سبّب المشاكل.

«أتحدّث عن التجربة الحياتيّة هذه لأوضّح حقيقةَ مخاطر الحكم. تعلّمتُ الكثيرَ مع مرور الوقت. فقد منحني الربُّ أن أحكمَ أيضًا من خلال سيّئاتي وخطاياي. بالتالي، في منصبي رئيسَ أساقفة بوينُس أيرِس، كنتُ أجمع، كلَّ خمسة عشر يومًا، الأساقفة الستّة المُعاوِنين، وعدّةَ مرّاتٍ في السنة، مجلسَ الكهَنَة. كانت الأسئلة تُطرَح، ويُتاحُ مجالٌ للنقاش، وقد ساعدني ذلك كثيرًا على اتّخاذ أفضل القرارات. أمّا اليوم فأسمع بعضَهم يقولون لي: «لا تستشِر أحدًا، بل قرِّرْ». ولكنّي أظنّ أنّ الاستشارة أمرٌ أساسيّ. فمجامعُ الكرادلة والسينودُسات، على سبيل المثال، هي مصادر مهمّة تجعلُ هذه الاستشارات فعليّةً ونَشِطة. إلّا أنّه من اللازم جعلها أخفّ صلابةً من حيثُ صيغتُها. أريدُ استشاراتٍ فعليّة لا صوَريّة. إنّ مشوَرَة الكرادلة الثمانية، وهي لجنة استشاريّة، ليست قرارًا نابعًا منّي وحدي، بل إنّها ثمرة إرادة الكرادلة أنفُسِهم، وقد عبّروا عن رغبتهم هذه أثناء المجامع العامّة، قبل التِئام مجمع انتخاب البابا؛ نعم، أريدُ استشاراتٍ فعليّة لا صُوَريّة».

«الشعور مع الكنيسة»

بقيتُ مُركِّزًا على موضوع الكنيسة، وحاولتُ أن أفهمَ ما يعنيه بالتحديد، في نظر البابا فرنسيس، الشعور مع الكنيسة الذي يتحدّث عنه القدّيس إغناطيوس في **الرياضات الروحيّة**. فأجابني البابا من غير تردُّد، منطلقًا من تشبيه:

«إنّ صورة الكنيسة التي تعجبُني هي صورة شعب الله القدّوس والأمين. هوذا التعريف الذي غالبًا ما ألجأ إليه، وهو الوارد في الدستور المجمعيّ «نور العالم»، رقم ١٢. من المؤكَّد أنّ للانتماء إلى شعبٍ ما قيمةً لاهوتيّة عظيمة؛ فالله، في تاريخ الخلاص، قد أنقذَ شعبًا. ما من هويّة كاملة وتامّة من دون انتماءٍ إلى شعب؛ لا أحد يخلّصُ نفسه بمفرده، كائنًا منْزويًا، بل الله يجذبنا آخذًا بالاعتبار الماجريات المعقّدة في العلاقات بين الأفراد والتي تتحقّق داخل الجماعة البشريّة. نعم، يتسلّلُ اللهُ إلى عمق الحركيّة الديناميّة هذه.

«الشعبُ رعيّة. والكنيسة هي شعبُ الله السائِر طوالَ التاريخ، بأفراحه وأحزانه. إنّ الشعور مع الكنيسة، في رأيي الخاصّ، يعني أن تكونَ وسطَ هذا الشعب. وجماعة المؤمنين معصومةٌ في الإيمان؛ وهي تُظهر ذلك في مسيرتها من خلال معنى إيمانها السامي. هذا هو، في عينيّ، «الشعور مع الكنيسة» الذي يتحدّث عنه القدّيس إغناطيوس. عندما يجري الحوار بين الأشخاص، والأساقفة والبابا، بهذا الاتّجاه، وعندما يتّسمُ بالنَزاهة والوفاء، يُشرفُ عليه حينها الروح القدس. بالتالي، ليس شعورًا يستندُ إلى لاهوتيّين.

«ينطبق الأمرُ ذاته على مريم: فإنْ أردنا معرفة مَن هي، نلجأ إلى اللاهوتيّين. وإن أردنا معرفة كيف نحبُّها، فعلينا بسؤال الشعب. إذ إنّ مريم نفسَها قد أحبّت يسوع بقلب الشعب، كما نقرأ في نشيدها. لذا يجب ألّا نظنّ أنّ إدراك فكرة الشعور مع الكنيسة يرجع بشكلٍ حصريّ إلى بعده الهَرَميّ.»

وبعد برهةٍ من الصمت، ولتجنّب أيّ سوء فهم، حدّد البابا: «بكلّ تأكيد، علينا بالحذر من التفكير في أنّ عصمة جميع المؤمنين هذه، تلك التي أتحدّث عنها في ضوء المجمع، تُعَدُّ نوعًا من الشعبويّة. بالحريّ، هي اختبار سلطة أمّنا الكنيسة المقدّسة – كما سمّاها القدّيس إغناطيوس – اختبار الكنيسة بصفتها شعبَ الله، رُعاةً وشعبًا معًا. والكنيسة عبارة عن شعب الله بكامله. أرى قداسةَ شعب الله هذا يوميًّا؛ إنّها «قداسة الطبقة المتوسّطة» التي يمكن الجميعَ أن ينتموا إليها، هي التي أتى ماليغ على ذِكرها».

يقصدُ البابا جوزيف ماليغ (١٨٧٦–١٩٤٠)، الكاتب الفرنسيّ العزيز على قلبه، مع التِفاتَةٍ خاصّة إلى ثلاثيّته غير المكتملة *Pierres noires. Les Classes moyennes du Salut* (**الأحجار السود. طبقات الخلاص الوسطى**). لقد أطلقَ بعضُ النقّاد الفرنسيّين على ماليغ تسمية «مارسيل برُوسْت الكاثوليكيّ».

«أرى قداسةَ شعب الله في صَبره: هذه امرأة تُنشئُ أولادَها، وذاكَ رجلٌ يعمل ليأتي بالخبز إلى البيت، ثمّ هؤلاء المرضى، والكهَنة الطاعنون في السنّ، الحاملون جِراحًا لا تُحصى، والمحافظون، مع ذلك، على الابتسامة لأنّهم خدموا الربّ، وأيضًا أولئك الراهبات اللواتي يعملنَ كثيرًا ويعِشنَ قداسةً مخفيّة صامتة. هذه هي في نظري القداسة المشتركة. وغالبًا ما أُجانسُ مفهومَي القداسة والصبر؛ وليس الصبر بصفته تحمُّل ثِقل الأحداث والظروف في الحياة وحسب، بل باعتباره ثَباتًا في إرادة المضيّ قدُمًا، يومًا بعد يوم. هذه بالتحديد قداسةُ الكنيسة المُناضِلة التي يذكرها القدّيس إغناطيوس. وقد كانت كنيسةَ ذويّ: أبي، وأمّي، وجدّتي روزا التي اعتمدت عليّ جدًّا. أحتفظ، في كتاب فرضي، بوصيّتها، وأقرأها بشكلٍ دائم؛ إنّها شبهُ صلاةٍ في عينيّ. جدّتي قدّيسةٌ عانت الكثير، في الجسد والنفس، وظلّت تتقدّم في الحياة بشجاعةٍ لا توصَف.

«فالكنيسةُ هذه التي يجب أن «نشعرَ معها» تُعتبَر بيتَ الجميع، وليست هيكلًا صغيرًا يستقبلُ عددًا محدودًا من الأشخاص المُختارين. لا يجوز أن نحصر كنَف الكنيسة الجامعة في مأوًى يحمي وَضاعتَنا. والكنيسةُ أمّ؛ الكنيسةُ خَصبة، ويجب أن تكون! عندما ألاحظُ بعض التصرّفات السلبيّة لدى خدّامٍ في الكنيسة، أشخاصٍ مُكرَّسين، رجالًا أو نساء، فإنّ أوّل ما يأتي إلى بالي هو: «هذا أعزب متحجِّر»، أو «هذه عانس». ليسوا آباءَ ولا أمّهاتٍ. بالتالي لم يحظوا بفرصة وَهب الحياة. في المقابل، عندما أقرأ قصّة حياة المُرسَلين الساليزيان الذين ذهبوا إلى باتاغونيه، فإنّي أقرأ قصّة حياةٍ بحقّ، قصّةَ خصبٍ وعطاء.

«إليك مثلًا آخر حديثًا: لقد تحدّث الصحافيّون مطوَّلًا عن مكالمة هاتفيّة أجريتُها لأكلّمَ شابًّا بعثَ إليّ برسالة. قمتُ بإجراء المكالمة لأنّ رسالته كانت نِعمَ الحديث: جميلةً وبسيطة. لقد كانت فكرةُ الاتّصال بالشابّ، في نظري، عملًا

خصبًا. أدركتُ أنّه شابٌّ في طور النموّ، وقد رأى فيَّ أبًا له، وبالتالي قلتُ له أمورًا عن حياته. وكيف لأبٍ أن يدير ظهره ويقول «لا يهمّني»؟ إنّ هذه الخصوبة تجلبُ لي الكثير!»

الكنائسُ الحديثة والكنائس القديمة

وإذ بقيتُ أتحدّث عن موضوع الكنيسة، طرحتُ سؤالًا على البابا في ضوء أيّام الشبيبة العالميّة الأخيرة: «لفتَ الحدثُ المهمّ هذا انتباهَ المفكّرين إلى الشبيبة، ولكن أيضًا إلى «الرِئات الروحيّة» أيِ الكنائس المؤسَّسة حديثًا. فما هي الآمال التي تراها الكنيسةُ العالميّة نابعةً من هذه الكنائس؟».

قال البابا: «إنّ الكنائس الحديثة تطوّرُ في آنٍ واحد الإيمان والثقافة والحياة، وبالتالي تنحو منحًى مختلفًا عن الكنائس القديمة. أظنّ أنّ الصلة بين الكنائس المؤسَّسة قديمًا والأخرى المؤسَّسة حديثًا شبيهةٌ بالصِلة بين الأسلاف والفئة الشبابيّة في أيّ مجتمع. كلاهما يبني المستقبل، ولكنْ واحدةٌ بالحكمة، والأخرى بالقوّة والعزيمة. ولا تخلو هذه المسيرة، بكلّ تأكيد، من بعض المخاطر، بحيث إنّ الكنائسَ الأحدث قد تشعر بالاكتفاء الذاتيّ، والكنائس الأقدم قد تجد نفسها فارضةً على الأخرى نموذجَها الثقافيّ. ولكن، في النهاية، يُبنى المستقبل في الوَحدة والجماعة».

الكنيسة؟ مستشفى قَرَويّ

إنّ البابا بنيدِكتُس السادس عشر، وهو يعلنُ تَرْكَه السدّة البابويّة، وصف عالمَ اليوم معرَّضًا لتبديلاتٍ سريعة، ومضغوطًا بسبب مسائلَ بالغة الأهمّيّة في الحياة الإيمانيّة، وهي مسائل تتطلّب قوّةً جسديّة وروحيّة على السواء. فسألتُ البابا فرنسيس، انطلاقًا ممّا كان قد قاله لتوّه، إلامَ تحتاجُ الكنيسة بالضبط في الفترة التاريخيّة هذه، وإن كان ثمّة لزوم لبعض الإصلاحات؟ كما سألتُه عن تمنّياته من أجل الكنيسة في السنوات القادمة، وبأيّ كنيسةٍ يحلم؟ والبابا، إذ أدرك بداية سؤالي، بدأ بالقول إنّ البابا بنيدكتس قد برهن عن قداسةٍ تُذكَر في عمله

هذا، بل عن عظمةٍ وتواضع، وإنّه رجلُ الله، مبيّنًا عاطفةً قويّة وتقديرًا جَمًّا لسَلَفه.

«أرى بوضوحٍ أنّ أكثر ما تحتاج إليه كنيسةُ اليوم هو القدرة على مداواة جراحات المؤمنين وتدفئة قلوبهم، بالإضافة إلى اقتراب هؤلاء بعضهم من بعض، وروح المشاركة. أرى الكنيسة مستشفًى قرويًّا يستقبل أشخاصًا بعد معركة؛ لا يُجدي نفعًا أن نسأل جريحًا مُنازِعًا إن كان يعاني من «الكولسْترول»، أو إن كان معدَّل السكّر مرتفعًا في دمه. يجبُ مداواة جروحه أوّلًا، ومن ثمّ نهتمّ بالباقي. نعم، مداواة الجروح... نبدأُ من الأسفل.

«لقد كانت الكنيسة، في بعض الفترات، سجينةَ أفكارٍ وأحكامٍ منغلقة على وصايا هامشيّة. أمّا الأهمّ فالإعلان الأوّل: «يسوع المسيح خلّصَك». على خُدّام الكنيسة أن يكونوا، قبل أيّ شيء، خدّامَ رحمة. فالمُعرِّف، على سبيل المثال، معرَّضٌ دائمًا للوقوع في خطر القسوة والتصلُّب، أو الإفراط في التساهُل. ولا يُعتَبَر أيٌّ من الحالتَين سلوكًا رحومًا، لأنّ كليهما لا يعتبر الإنسانَ كما يجب. أمّا المتصلِّب فيتبرّأ من الأمر برجوعه إلى الوصايا، والمتساهل بقوله، ببساطة: «هذه ليست بخطيئة»، أو غير ذلك في المعنى ذاته. في حين أنّ المطلوب مرافقة المؤمنين ومُداواة الجروح.

«كيفَ نعاملُ شعبَ الله؟ إنّي أحلمُ بكنيسةٍ أُمّ وراعية. وعلى خدّام الكنيسة أن يتّسموا بنفسٍ رحومة، وأن يعتنوا بالأشخاص، وأن يرافقوهم، كما فعل السامريّ الصالح الذي غسل قريبَه وخلّصه. إنّ هذا الإنجيل لَنقيٌّ جدًّا؛ الله أقوى من الخطيئة. أمّا الإصلاحات البنيويّة أوالتنظيميّة فأمرٌ ثانويّ، أيْ يأتي في مرحلةٍ ثانية. والإصلاح الأوّل يجبُ أن يتّصل بطريقة حضور الإنسان؛ بحيث إنّ على المبشّرين بالإنجيل أن يكونوا أشخاصًا قادرين على تدفئة قلب الآخر، وعلى محاورته والسَير جنبَه، والغطس في ظلماته من غير ضياع. إنّ شعبَ الله يحتاجُ إلى رُعاة، لا إلى موظّفين أو إكليرُس دولة. وعلى الأساقفة، بصورة خاصّة، أن يتمكّنوا من مساندة خُطى الله وسط شعبه، بحيث لا يبقى أحد في

الخلف. كما عليهم أن يرافقوا «القطيع» الذي يتمتّع بالبصيرة الكافية لاكتشاف دروبٍ جديدة.

«فلنبذل إذًا الجهودَ اللازمة لإيجاد هذه الدروب، بدل أن نمثّلَ كنيسةً تكتفي باستقبال البشر تاركةً أبوابها مفتوحة للجميع؛ فلنجعلها قادرةً على الخروج من ذاتها والتوجّه إلى مَن لا يقصدها، إلى مَن تخلّى عنها أو لم يُبالِ بها. وأحيانًا، يكونُ ذاك الذي تخلّى عن الكنيسة قد فعل ذلك لأسبابٍ يمكن تفهّمها وتقييمها، وتستطيعُ أن تُعيده إليها. وللجرأة والشجاعة دورٌ في ذلك».

وأنا أدوّنُ ما كان البابا يقوله، ذكرتُ له أنّ ثمّة مسيحيّين يعيشون في ظروفٍ تعدُّها الكنيسة غيرَ مستقرّة، أو على الأقلّ ظروف معقّدة؛ إنّهم مسيحيّون يعانون، بطريقةٍ أو بأخرى، جراحاتٍ لم تُداوَ. أقصدُ المطلَّقين الذين تزوّجوا ثانيةً، والمِثليّين، إلى ما هنالك. فكيف يمكنُ بالتالي أن تُقامَ رسالةٌ رعويّة؟ عندها أشار لي البابا أنّه فهمَ قصدي فقال:

«علينا بإعلان الإنجيل على كلّ درب، مُنشِدين بشرى الملكوت السارّة، وشافين، أيضًا من خلال وَعظنا، جميعَ أنواع المرض والجروح. حين كنتُ في بوينُس أيرِس، تسلّمتُ رسائلَ من أشخاصٍ مثليّين، «جَرحى المجتمع»، لأنّهم لطالما شعروا بأنّ الكنيسة تحكمُ عليهم. غير أنّ هذا ليس ما تريده الكنيسة في الواقع. وفي طريق عودتي من ريو دي جانيرو، قلتُ: إن وُجِدت في أيّ شخصٍ مثليّ نيّةٌ حسَنة، وكان في بحثٍ مستمرٍّ عن الله، فلا يحقّ لي بتاتًا أن أحكم عليه. لقد قلتُ ما يقوله التعليمُ المسيحيّ [تعليم الكنيسة الكاثوليكيّة]. طبعًا، يحقُّ للدين أن يعبّر عن وجهة نظره في شأن خدمة الآخرين، ولكنّ الله، عندما خلق الكون، جعلنا أحرارًا: من المستحيل التدخُّل على الصعيد الروحيّ في حياة الأشخاص. ذات يوم، سألني أحدُهم إن كنتُ أقبلُ بالمثليّة. فأجبتُه حينها بسؤالٍ آخر: «قلْ لي؛ عندما ينظر اللهُ إلى إنسانٍ مثليّ، أيؤيّدُ وجوده بكلّ عطف، أم ينبذُه وهو يحكم عليه؟». علينا دائمًا بإعطاء الإنسان اعتبارًا، وهكذا ندخلُ في عمق سرّ الكائن البشريّ. والله، في الحياة يومًا بعد يوم، يرافقُ بَنيه. ونحن، بدورنا، يجبُ أن

نرافقَهم انطلاقًا من وضعهم الخاصّ. أمّا المرافقة فتتمّ في الرحمةِ والرأفة. وإذ يحصل هذا، يقود الروحُ القدس الكاهنَ إلى قول الأنسَب والأصحّ.

«يتعلّق الأمر كذلك بعظمة سرّ الاعتراف؛ أي أن نبدي حُكمًا على كلّ حالةٍ بمفردها، وأن نتمكّن من أن نحدّد أفضل ما على المُعترِف أن يقوم به إن كان يبحث عن الله ويبتغي نِعمتَه. وليس كرسيّ الاعتراف مكانَ تعذيب، بل هو حضنُ الرحمة الذي يدعونا الربُّ إليه لنقدّم أجملَ عطائنا. وفي هذا السياق بالتحديد أتذكّرُ تلك المرأة التي كانت قد عانت فشلَ زواجها بعد أن خضعت لعمليّة إجهاض. وقد تزوّجت ثانيةً، واليوم تعيشُ في جوٍّ من الهدوء ولها خمسةُ أولاد. أمّا ذاك الإجهاض فتحملُه على كتفَيها عِبئًا ثقيلًا، وندَمُها صادق. وتودُّ أن تذهب إلى أبعد في حياتها المسيحيّة: فماذا يفعلُ المُعرِّف في حالةٍ مُماثِلة؟

«لا يمكننا التركيز على المسائل المرتبطة بالإجهاض، أو بالزواج بين المثليّين، أو باستعمال الوسائل المانعة الحَمل وحدَها، بل هذا مستحيل. لم أتحدّث كثيرًا عن تلك الموضوعات، فلاموني. ولكن عندما ندرسُ تلك الأمور، علينا بفعل ذلك في سياقٍ محدَّد. فنحن نعرفُ جيّدًا رأيَ الكنيسة فيها، وإنّي بنفسي ابنُ الكنيسة؛ لا حاجة إلى معاودة الحديث عن تلك المسائل باستمرار.

«والإرشاداتُ التعليميّة، العقائديّة كما الأخلاقيّة، ليست كلّها متساوية. فالرسالة الرعويّة لا تحصر اهتمامها في نَقل آلاف التعاليم وفَرضِها بالعِناد. أمّا الإعلان ذو الطابع الرسوليّ فيركّزُ على الجوهر، والضروريّ، وهو بالأصل ما يشوّق ويجذب بقوّة، ويوقِدُ نارَ القلب، كما حدث لتلميذَي عمّاوس. يجب إذًا أن نجدَ توازنًا جديدًا، وإلّا فإنّ بُنيانَ الكنيسة الأخلاقيّ، هو أيضًا، قد ينهارُ كصَرْحٍ من الورق، ويفقد عُذوبةَ الإنجيل وأريجَه. لذا على الإعلان الإنجيليّ أن يكون أشدّ طهارة، عميقًا، مُشِعًّا. وانطلاقًا منه بالتحديد تتأتّى النتائجُ الأخرى.

«أقول هذا وأنا أفكّرُ كذلك في تبشيرنا وفي مضمونه. فكلُّ وعظٍ جميل، حقيقيّ، عليه أن يبدأ بالبشرى الأولى، بشرى الخَلاص. إذ لا بشرى تتخطّاها صَلابةً، ولا عُمقًا، ولا صحّة. ثمّ يجبُ إنشاء تعليمٍ دينيّ واستخلاص نتائجَ أخلاقيّة منه. ولكن لا ننسَ أنّ الإعلان عن محبّة الله المخلِّصة يتصدّرُ الالتِزامَين

الأخلاقيّ والدينيّ. أمّا في أيّامنا هذه فيبدو أحيانًا أنّ العكس هو ما يحصل. إنّ الوعظ حجرُ المِحَكّ الذي يقيّمُ قُربَ المُبشِّر من شعبه ومقدرته على إيجاده ولقائه، إذ إنّ على مَن يبشّر أن يعرف جيّدًا قلوبَ جماعته فيرى أين تحيا رغبةُ الله وتشتدّ. ولا يمكن حَصرُ الرسالة الإنجيليّة في بعضٍ من كلّ هذه المظاهر التي، على أهمّيّتها، لا تعبّر بمفردها عن صميم تعليم يسوع».

البابا، الراهب الأوّل منذ ١٨٢ عامًا...

إنّ فرنسيس هو البابا الأوّل الآتي من رهبانيّة منذ البابا غريغوريوس السادس عشر الذي كان راهبًا في رهبنة «الكامالدول»، وانتُخب العام ١٨٣١، أيْ منذ ١٨٢ عامًا. فسألتُ البابا: «ما دورُ الرهبان في كنيسة اليوم؟».

«إنّ الرهبان لأنبياء»، أجاب البابا. «إختاروا أن يقتدوا بالمسيح، مقلِّدين حياتَه المطبوعة بطاعة الآب، وبالفقر، كما بحياة الجماعة وبالعِفّة. فمن هذا المنظور، لا يمكن أن تتحوّل النُذور (الرهبانيّة) إلى نوعٍ من «الكاريكاتور»، وإلّا أصبحت حياةُ الجماعة، مثلًا، جحيمًا حقيقيًّا، والعِفّةُ أسلوبَ عيشٍ خاصًّا بالعُزّاب؛ يجبُ أن يكون نذرُ العفّة نذرَ خُصوبة. ففي الكنيسة، يُدعى الرهبان، بالتحديد، ليكونوا أنبياءَ يشهدون على طريقة عيش يسوع في هذه الدنيا، ويعلنون كيف سيتحقّق ملكوتُ الله في كماله المُطلق. لذا فلا يجدر بالراهب أن يتخلّى أبدًا عن موقفه النبويّ. ولكنّ هذا لا يعني أن يُعارِضَ سلطةَ الكنيسة، وإن كانت المهمّة النبويّة والبنية السلطويّة غير متوافقتَين. إنّي أتحدّث عن اقتراحٍ بنّاء يحتاجُ إلى الجرأة والتطبيق. فلنذكر ما حقّقه عددٌ ضخمٌ من قدّيسين عظماء ورهبان وراهبات، منذ أيّام القدّيس أنطونيوس الكبير. أن يكون أحدُهم نبيًّا قد يعني التسبّب بالضجيج؛ لا أعرف كيف أعبّر عن ذلك... إنّ النبوّة تصدر الضجيج، بل يمكن القول إنّها تُعِمُّ الفوضى. تقتضي موهبتُها (أو الكاريزما الخاصّة بها) أن تكون كالخميرة في العجين؛ النبوّةُ تعلنُ عن روح الإنجيل».

الإدارات الرومانيّة، والمجمعيّة السينودسيّة، والحركة المسكونيّة

بشأن الإحالة على موضوع السلطة، سألتُ البابا: «ما رأيكم في الإدارات الرومانيّة؟».

«إنّ الإدارات الرومانيّة في خدمة البابا والأساقفة؛ بحيث عليها أن تساعد إمّا الكنائس الخاصّة، وإمّا المَجالس الأسقفيّة. إنّها هيئاتٌ مُعاوِنة. وفي بعض الحالات، حين لا يتمّ فهمُها كما يجب، تتعرضّ لخطر أن تتحوّل، بالحريّ، إلى هيئاتِ رَقابة. تُدهِشُنا سلسلةُ التبليغات التي تصل إلى روما في شأن تعاليم لا تتوافق وعقيدةَ الإيمان! في رأيي، على المجالس الأسقفيّة المحلّيّة أن تهتمّ بتلك الحالات وتعالجها. وروما، بدورها، يمكنها أن تساندَ هذه المجالس وتقدّمَ إليها العونَ المُلائِم. إذ إنّ حالاتٍ من هذا النوع تلقى المعالجة الأنسَب محلّيًّا. بالتالي، فإنّ الإدارات الرومانيّة تؤدّي دورَ المُصلِح المُوفِّق، وليس دور الوسيط أو الوكيل المُكلَّف».

عندها ذكّرتُ البابا أنّه أثناء حفل مَنْح البركة وتسليم الشارات الأسقفيّة إلى أربعةٍ وثلاثين رئيس أساقفة، يوم ٢٩ حزيران الفائت، كان قد عرّف بمسار السينودس، المسار الذي يقودُ الكنيسة المتّحِدة المتماسِكة إلى «أن تنمو بانسجامٍ مع خدمة الحبر الرومانيّ». لهذا أسأل: «كيف نوفّقُ بين أوّليّة بطرس والسينودس؟ وأيّ مساراتٍ يمكن أن تُتَّبَع، من منظورٍ مسكونيّ؟».

«علينا بالسَير معًا: الناس والأساقفة والبابا. فحياة السينودس تُعاشُ على مستوياتٍ مختلفة. ولربّما حان الوقتُ لتغيير طريقة التئام السينودس، لأنّ الطريقة الراهنة تبدو لي جامدة. وهذا قد يكتسبُ كذلك قيمةً مسكونيّة، بشكلٍ خاصّ مع إخوتنا الأرثوذكسيّين. فمنهم، يمكننا تعلُّم المزيد عن معنى العمل الأسقفيّ الجماعيّ وعن التقليد المجمعيّ. أمّا الجهد في التفكير المشترك، وهو يأخذ بعين الاعتبار كيف كانت الكنيسة تُدار في القرون الأولى قبل الانشقاق بين الشرق والغرب، فسوف تظهرُ ثِمارُه في الوقت المناسب. وهذا مهمٌّ للعلاقات المسكونيّة: بحيث نعرفُ أنفسنا وحسب، بل نعرف ما زرعه الروح القدس في الآخَر هبةً موجّهة إلينا كذلك. وأنا أريد أن أتابع في دراسةٍ طريقة ممارسة أوّليّة بطرس

التي سبق أن اعتمدتها اللجنة المختلطة العام ٢٠٠٧، ما آل إلى توقيع وثيقة راڤينّا (إيطاليا). إذ يجبُ المتابعة في هذه الوجهة».

حاولتُ أن أفهم كيف يرى البابا مستقبل وحدة الكنيسة. فقال لي: «علينا أن نسير معًا متّحدين بالرغم من نقاط الاختلاف بيننا، إذ لا طريقَ آخر يوحّدُنا. إنّه طريقُ يسوع».

وماذا عن دور النساء في الكنيسة؟ لقد أشار البابا، غير مرّة، إلى هذا الموضوع في مناسباتٍ شتّى. وأثناء مقابلة كان قد أكّد أنّ حضور النساء في حياة الكنيسة لم يتجلَّ بما يكفي، إذ إنّ وطأة الذكوريّة لم تكن تفسحُ المجالَ للدور الموكَل إليهنّ داخل الجماعة. وأعاد الكلام على المسألة في طريق عودته من ريو دي جانيرو، قائلًا إنّه ما من لاهوتٍ معمَّق خاصّ بالنساء في أيّامنا. فسألتُه عندها: «كيف يجدر أن يكون دور المرأة في الكنيسة؟ وما العمل لمَنحه، اليوم، دَفعًا أقوى؟».

«من الضروريّ توسيع المجالات من أجل حضورٍ أنثويٍّ قويٍّ وفعّال في الكنيسة»، أجاب البابا. «ولكنّي أخشى سيطرة «الذكوريّة الأنثويّة»، لأنّ للمرأة تكوينًا مغايرًا لتكوين الرجل. والخطابات التي أسمعها عن دور النساء تكون في الغالب مُستوحاةً من أيديولوجيا ذكوريّة. إنّ النساء يعرضنَ مسائلَ يجبُ مواجهتُها. ولا تستطيعُ الكنيسة أن تكون نفسَها بدون النساء والدور الذي يؤدّينه؛ لا تقدر على غيابهنّ. فمريم مثلًا، وهي امرأة، تفوقُ الأساقفةَ قيمةً وأهمّيّة. أقول هذا لأنّه يجدرُ التمييز بين دور الإنسان ومَقامه؛ يجب مضاعفة الجهود لإعداد لاهوتٍ أنثويّ معمَّق. وفقط في هذه الحالة، أيْ عندما نكون تجاوزنا تلك المرحلة، سنتمكّنُ من التفكير بشكلٍ أفضل في سَير العمل داخل الحياة الكنسيّة. فإنّ العبقريّة الأنثويّة لَضروريّةٌ حيث تُتّخَذ القراراتُ المهمّة. واليوم، يُطرَحُ التحدّي التالي: البحث في مكانة المرأة الخاصّة، كذلك حيث تُمارَسُ السلطة في مختلف الميادين الكنسيّة».

المجمع الفاتيكانيّ الثاني

طرحتُ على البابا سؤالًا في ضوء التصريحات السابقة، متصوِّرًا إجابةً طويلةً واضحة: «ما الذي حقّقه المجمع الفاتيكانيّ الثاني؟ وماذا حصل في أثره؟». فتهيّأ لي أنّ البابا يعدّ المجمع الفاتيكانيّ موضوعًا لا يُناقَش لدرجة أنّ لا ضرورةَ للمبالغة في الحديث عنه، خوفًا من إضعاف أهمّيّته. فعقَّب قائلًا:

«شكّلَ المجمع الفاتيكانيّ الثاني إعادةَ قراءة للإنجيل في ضوء الثقافة الحديثة. ولّدَ حركةَ تجديدٍ تنبعُ، ببساطة، من الإنجيل نفسِه. ونتائجها لَمُبهِرة. يكفي أن نذكّر بالليتُرجيا؛ فقد كان عمل الإصلاح الليترجيّ خدمةً للشعب من حيث إعادة قراءة الإنجيل انطلاقًا من ظرفٍ تاريخيّ ملموس. بالطبع ثمّة توجّهات تفسيريّة إنجيليّة منها ما هو في تتابُع مع التفسيرات الماضية، ومنها ما هو منقطعٌ عنها، ولكن من الواضح أنّ طريقة قراءة الإنجيل من خلال «تأنينه»، وهذه خاصّةُ المجمع، لا رجعةَ عنها على الإطلاق. كما نصطدم كذلك بمسائل محدّدة كالليترجيا بحسب القدّاس التقليديّ الرومانيّ القديم. أظنّ أنّ البابا بنيدكتس كان متمهّلًا وحذرًا في خَياره، إذ كان ثمّة أشخاص يساعدونه ويتمتّعون بالحساسيّة الخاصّة تلك. أمّا الأمر الأشدّ إقلاقًا فهو خطر تحويل القدّاس المذكور إلى أيديولوجيا بحدّ ذاتها».

البحث عن الله ولقاؤه في كلّ الأشياء

إنّ خطابَ البابا فرنسيس متوازنٌ إلى حدٍّ بعيد في ما خصّ التحدّيات الراهنة. ومنذ سنواتٍ عديدة، كان قد كتب أنّه، من أجل رؤية الواقع، يجب التحلّي بنظرة إيمان، وإلّا فهو واقع مشتَّت ذاك الذي ندركه. إنّ هذا أحد موضوعات الرسالة البابويّة **نور الإيمان**» *Lumen Fidei*. وفي ذاكرتي بعضُ فقراتٍ من خطابات البابا فرنسيس التي ألقاها طوال أيّام الشبيبة العالميّة في ريو دي جانيرو. فذكرتُها له: «اللهُ موجودٌ ويتجلّى في اللحظة الراهنة»؛ «إنّه في كلّ مكان». هي جملٌ تُغني التعبير الإغناطيّ «البحث عن الله ولقاؤه في كلّ الأشياء». فسألتُ: «قداسة البابا، كيف نبحث عن الله ونَلقاه في كلّ الأشياء؟». أجاب:

«إنّ ما قلتُه في ريو دي جانيرو ذو قيمة مرتبطة بالزمن. فالبحث عن الله في الماضي أو في المستقبل تجربة؛ إذ إنّ الله موجودٌ في الماضي بوجهٍ مؤكّد، لأنّه يتركُ آثارَه حيث يتدخّل. وهو أيضًا موجودٌ في المستقبل وعدًا. ولكنّ الله «الواقعيّ»، إن جاز التعبير، حاضرٌ اليوم. لذا فإنّ التشكّي والرثاء لن يساعدانا أبدًا في لقاء الله؛ إنّ التشكّي الذي يندّدُ بعالمٍ «بربريّ» مآلُه أن يولّد، داخل الكنيسة، رغبةً في تطبيق النظام، أو بكلمة أخرى نَزعة مُحافِظة أو ردّة فعل دفاعيّة. فأكرّر: اللهُ موجودٌ اليوم.

«اللهُ يتجلّى في وحيٍ تاريخيّ، في الزمن. والزمن يكشفُ عن المسارات، أمّا المكان فيُبلوِرُها. اللهُ موجودٌ في الزمن، في المَسارات الجارية. فعلينا إذًا أن نبادرَ إلى مساراتٍ طويلة أحيانًا عوض أن نشغلَ مواضعَ السلطة. يتجلّى اللهُ في الزمن وهو حاضر في مسارات التاريخ؛ وهذا يقود إلى تفضيل الأفعال التي تولّدُ ديناميّاتٍ جديدة. وكلّ ذلك يتطلّبُ الصبرَ والانتظار.

«إنّ لقاءَ الله في كلّ الأشياء ليس بمفاجأة اختباريّة؛ في العمق، نرغبُ في أن نلقى اللهَ فورًا من خلال طريقة اختباريّة. ولكنّها ليست الطريقة السليمة للقاء الله؛ بل نلقاه عبر النسيم الخفيف الذي أحسّه النبيّ إيليّا[4]. أمّا الحواسّ التي تدرك الله فهي التي يسمّيها القدّيس إغناطيوس «الحواسّ الروحيّة». فلكي نلقى الله، يطلب إلينا إغناطيوس أن نهيّئ شعورَنا الروحيّ بدل أن نعتمدَ مُقاربةً اختباريّة صرف. فنعتمد بالحريّ موقفًا تأمّليًّا، بحيثُ نحسُّ أنّنا نسيرُ على درب الفهم والتعاطُف إزاءَ الأوضاع والظروف المُعاشَة. أمّا علامة ذلك فتتبلور في شعورٍ بسلامٍ داخليّ عميق، وبتعزية روحيّة، بل بمحبّة الله وكلّ الأشياء في الله».

اليقينُ والخطأ

إن لم يكن لقاءُ الله في كلّ الأشياء مفاجأةً اختباريّة، كما يقول البابا، وبالتالي إن كان الأمر يتعلّق بمسارٍ يفطنُ للتاريخ، فليس مستبعَدًا الوقوع في الخطأ....

[4] **١ ملوك ١٩.**

يقولُ البابا: «في عمليّة البحث عن الله هذه ولقائه في كلّ الأشياء، يبقى هناك، من دون شكّ، جانبٌ من الغُموض، بل لا بدّ منه؛ إذ إن قال أحدُهم إنّه لقي الله في اليقين التامّ، بغياب كلّ مجالٍ للغموض، فيكونُ ثمّة خطبٌ ما. في نظري، الغموض مفتاحٌ أساسيّ. إنّ مَن يجدُ أجوبةً عن كلّ الأسئلة، لا يكون اللهُ معه، بل هو نبيٌّ دجّال يستخدمُ الدينَ لمصلحته. إنّ قادةَ شعب الله الكِبار، مثل موسى، لطالما تركوا مجالًا للشكّ؛ إن كان علينا تخصيص مجالٍ للربّ، لا ليقيننا، فيقتضي ذلك بعضَ التواضع. وعدمُ اليقين يكونُ في كلّ تمييزٍ فعليّ منفتح على التثبيت الآتي من العزاء الروحيّ.

«إنّ ابتغاء الوضوح المبالَغ فيه بعمليّة البحث عن الله ولقائه في كلّ الأشياء لهو خطر، خطر أن نقول، بيقينٍ بشريٍّ وعجرفة: «اللهُ هنا». عندها لا نلقى إلّا إلهًا على قياسنا. أمّا السلوك الصحيح فهو الذي اعتمده القدّيس أَوغسطينُس: البحث عن الله بُغيةَ لقائه، ولقاؤه بغيةَ البحث عنه أبدًا. غالبًا ما نبحث عنه متلمّسين آثاره، وهذا واضح في عددٍ كبير من المواضع **بالكتاب المقدّس**. إنّها خبرة آباء الإيمان الذين نتمثّل بهم. يجب إعادة قراءة الفصل ١١ من **الرسالة إلى العبرانيّين**؛ إبراهيم يسيرُ جاهلًا إلى أين يذهب، يقودُه الإيمان. إنّ جميع أسلافنا في الإيمان قد ماتوا بعد أن تلمّسوا الوعود الحسَنة ولكن عن بُعد... لا نحظى بالحياة وكأنّها كتيّب أوبرا وافٍ وجاهز؛ بل تقتضي حياتنا هذه أن نمشي، أن نتقدّم، ونعمل، ونبحث، ونرى.... فندخل في مغامرة البحث، واللقاء، ونتركُ اللهَ يبحثُ عنّا بدوره، ويَلقانا.

«لهذا فاللهُ هو الأوّل، الأوّل دائمًا، هو مَن يتقدّمُنا. إنّه شبيهٌ بزهرة شجرة اللوز التي تزهر دائمًا قبل غيرها. نقرأُ عنه في أسفار الأنبياء. وهكذا نلقاه في طريقنا، ونحن نمشي. قد يُقال إنّ هذا نوعٌ من النسبيّة. أهو كذلك؟ نعم، إن فهمنا الأمرَ بشكلٍ معاكس، وكأنّه نوعٌ من الحُلوليّة الغامضة. في حين لا يكون كذلك إن فهمناه بمعنى الكتاب المقدّس والذي بحسبه يكون الله هو مَن يفاجئ على الدوام. لا نعرف أبدًا أين وكيف نلقى الله، ولا نستطيعُ تحديد الأزمنة أو الأمكنة حيث سنلقاه. واللقاء غايةُ التمييز. لذا فإنّ التمييز أساسيّ.

«إن كان المسيحيُّ ميّالًا إلى التقيّد بحرف الشريعة، أو يسعى إلى إحياء الماضي، ويبغي الوضوحَ والتأكيد في كلّ شيءٍ، فلن يجد شيئًا. إنّ التقليد القديم وذكرى الماضي يجب أن يمُدّانا بالشجاعة لفتح آفاقٍ جديدة للقاء الله. فمَن لا يبحث، اليوم، إلّا عن حلولٍ تنظيميّة، ويسعى بطريقة مبالغ فيها إلى «الضَمان» العقائديّ، ويرغبُ بعنادٍ في إعادة الماضي المفقود، يكون ذا نظرةٍ جامدة لا تتقدّم. وبهذه الحالة، يصبحُ الإيمانُ أيديولوجيا مثل غيرها. من ناحيتي، لديّ يقينٌ عقائديٌّ ثابت: إنّ الله موجودٌ في حياة كلٍّ منّا. فحتّى ولو عاش الإنسانُ كارثة، أو دمّرته الرذائل والمخدِّرات وسواها، يبقى اللهُ موجودًا في حياته. نستطيعُ، بل يجب أن نبحث عن الله في كلّ حياةٍ بشريّة. وحتّى لو كانت حياة أحدهم أشبه بأرضٍ تملأها الأشواكُ والأعشابُ الفاسدة، تبقى مكانًا خصبًا يُنبِتُ البذرةَ الصالحة. لذا من الضروريّ الوثوق بالله».

هل نتفاءل؟

ذكّرتني كلماتُ البابا ببعضٍ من مداخلاته السابقة حيث كَتب، إذ كان حينها الكاردينال برغوغليو، أنّ الله يُقيمُ في المدينة، وقد اختلط بالجميع واتّحد بكلّ شخص. وفي رأيي، كأنّنا نبوحُ بما كتبه القدّيس إغناطيوس في **الرياضات الروحيّة**: اللهُ «يعمل» في عالمنا. فسألتُ البابا: «هل نتفاءل؟ ما هي علامات الرجاء في عالم اليوم؟ وكيف نكون متفائلين في عالمٍ يعيشُ أزمة؟».

«لا أحبّذُ استخدام كلمة «تفاؤل» لأنّها تعبّرُ عن موقفٍ نفسيّ، بل أفضّلُ كلمة «رجاء» الواردة في الفصل ١١ من الرسالة إلى العبرانيّين التي ذكرتُها منذ بُرهة. إنّ الآباء تابعوا سَيرَهم، عابرين مشاكلَ كبيرة. والرجاءُ لا يُخيِّب، وهذا ما نقرأه في الرسالة إلى أهل روما. فكّرْ، بالحريّ، في لُغز أوبرا توراندو لِغياكو كومو بوتشيني، قال لي البابا. فتذكّرتُ حينها أبيات الأوبرا التي تحمل اللغز الخاصّ بالأميرة، وجوابه الرجاء:

«في الليل القاتم

يحومُ شبحٌ متقزِّح

يقومُ ويبسطُ جَناحَيه

على البشريّة الداكنة اللامتناهية

كلٌّ يناديه

وكلٌّ يتوسّلُ إليه

لكيما في القلب يُولد ثانيةً!

وفي كلِّ ليلةٍ يُولد

وفي كلِّ يومٍ يموت».

تكشفُ هذه الأبيات شوقًا إلى رجاءٍ ليس إلّا شبحًا متقزِّحًا يختفي عند الفجر.

تابع البابا: «والرجاءُ المسيحيّ ليس شبحًا، وهو لا يخيّبُ صاحبه. إنّه فضيلة إلهيّة، وبالتالي، في النهاية، هِبةٌ من الله مستحيل أن تقتصر على التفاؤل الذي، بدوره، هو بشريٌّ صرف. إنّ اللهَ لا يخيّبُ الرجاء لأنّه لا يستطيعُ أن ينكر نفسَه. فاللهُ بكلّيّته وَعد».

الفنُّ والإبداع

بقيتُ متأثّرًا بإشارة البابا إلى أوبرا توراندو مفتاحًا للكلام على سرّ الرجاء. وأردتُ أن أعرف أكثر ما هي مراجعه الفنّيّة والأدبيّة. قمتُ بتذكيره أنّه، في العام ٢٠٠٦، كان قد قال إنّ الفنّانين الكِبار يجيدون تصوير واقع الحياة المأسويّ والمؤلم بطريقةٍ جميلة. فسألته مَن هم الفنّانون والكتّاب الذين يفضّلهم، وإن كان ثمّة قاسم مشترَك بينهم.... فأجاب:

«لقد أُعجِبتُ بعددٍ كبيرٍ من كتّابٍ شديدي الاختلاف. أحبّ جدًّا دُستويفسكي وأُلدِرلين. أمّا الثاني فأذكر له القصيدةَ الغنائيّة التي كتبها لمناسبة عيد ميلاد جدّته. إنّها قصيدةٌ فائقةُ الجمال جلبت لي الكثير على الصعيد الروحيّ. هي التي تنتهي بالبيت التالي: «فليَفي الرجلُ بما وعدَه الطفل». لقد أثّر فيّ هذا لأنّي

أحببتُ جدّتي روزا كثيرًا. وألدرلين، في قصيدته الشعريّة، يقرّبُ جدّته من مريم التي أنجبت يسوع مَن يسمّيه «صديق الأرض»، هو «مَن لم يعتبر أحدًا غريبًا عنه». قرأتُ كتابَ ألسّاندرو مَنْزوني *Les fiancés* (**الخَطيبان**)[٥] ثلاث مرّات، وأحتفظُ به على طاولتي بانتظار مطالعةٍ ثانية. تعلّمتُ الكثيرَ من مَنْزوني. فعندما كنتُ طفلًا، جعلتني جدّتي أحفظُ بداية الكتاب عن ظهر قلب: «فرعٌ بحيرة «كوم» ينساب نحو الجنوب بين سلسلتَي جبالٍ لامتناهيتَيْن». كما أُعجِبتُ بجيرار مانْلي هوبكنْز[٦] جدًّا.

«أمّا في الرسم فأنا معجبٌ بـلو كارافاج. إنّ لوحاته تعني لي الكثير. وكذلك شاغال ولوحته «الصلب الأبيض»... في الموسيقى، أحبّ موزار بدون شكّ، ولا سيّما مقطوعته الموسيقيّة بعنوان «لقد وُلِد» التي لا تُضاهى؛ ترفعُكَ إلى الله! وأحبّ موسيقى موزار بعَزف كلارا هاسكِل؛ رائع: لا أدركُه بالعقل، بل عليّ سماعُه. كما أحبّ بيتهوفن، ولكن وهو مؤدّى بأسلوب بروميثيوسيّ. في نظري، العازف الأشدّ تأثّرًا بهذا الأسلوب هو فُرتفانغلر. ثمّ لدينا مقطوعة «الآلام» لِباخ. أمّا اللحن الذي أفضّله فهو «إرحمني»، في شكوى بطرس بـ«الآلام بحسب القدّيس متّى» لِباخ نفسه. أيضًا رائع! بالإضافة، وعلى مستوًى آخر، أقدّرُ فاغنِر؛ أستمتعُ بالاستماع إلى موسيقاه من وقتٍ إلى وقت. أمّا الأفضل في نظري فهو رباعيّته التي عزفَها فُرتفانغلِر في «لا سكالا» العام ١٩٥٠، وكذلك «بارسيفال» بقيادة كنابِّرتسبوخ العام ١٩٦٢.

«ولا بدّ من الحديث عن السينما أيضًا. لقد أحببتُ فيلم «لا سترادا» لِفلّيني أكثر من أيّ فيلمٍ آخر. أتماثل به بكلّ سرور، إذ يحتوي إحالةً مبطّنة على القدّيس فرنسيس. أظنّ أنّي شاهدتُ كلّ أفلام آنّا ماغناني وألدو فابريزي[٧] عندما كنتُ بين العاشرة والثانية عشرة من العمر. كما أحببتُ جدًّا فيلم «روما المدينة المفتوحة».

---

[٥] كتاب لألسّاندرو مَنْزوني (١٧٨٥-١٨٧٣)، شاعر رومنسيّ إيطاليّ. وكتابه *Les fiancés* رواية تاريخيّة.

[٦] شاعر إنكليزيّ يسوعيّ (١٨٤٤-١٨٨٩).

[٧] ممثّلان إيطاليّان من منتصف القرن العشرين. والاثنان مثّلا في فيلم *Rome, ville ouverte* لروبرتو روسّيلّيني.

أمّا ثقافتي السينمائيّة هذه فأدينُ بها لوالديّ اللذَين لطالما اصطحباني إلى الصالات الكبيرة.

«بشكلٍ عامّ، أحبّ فنّاني الدراما، وخصوصًا الأشدّ كلاسيكيّة. على سبيل المثال، سِرفانتِس يضع على لسان كارّاسكو، المرشّح للفروسيّة، وصفًا جميلًا ليُثنيَ على قصّة **دون كيخوتِه**: «الأولاد يحملونها بين أيديهم، والشبيبة تقرأها، والبالغون يفهمونها، والعجائز يُثنون عليها»[٨]. يبدو لي هذا تعريفًا مناسبًا للأعمال الكلاسيكيّة».

أدركتُ عندها أنّني مأخوذٌ بالمراجع التي ذكرها البابا، وأنّني أرغبُ في دخول حياته من باب خياراته الفنّيّة. وهذا، على ما أظنّ، مسارٌ طويل قد يتضمّن الكلام على السينما، من الواقعيّة الإيطاليّة إلى «وليمة بابيت» (Festin de Babette). كما خطرت ببالي مؤلّفات أخرى وكتّاب ذكرهم البابا في مناسباتٍ متعدّدة، من بينهم كتّاب أدنى شهرة أو محلّيّون: من قصيدة «مارتين فييرّو» لخوسيه هِرناندِيز إلى شعر نينو كوستا أو إلى **الخروج الكبير**، من آثار لويجي أورسِنيغو[٩]. فكّرت أيضًا في جوزيف ماليغ وخوسيه ماريا بيمان[١٠]، وطبعًا في دانته وبُورج، وخاصّةً في ليوبولد ماريشال[١١]. أفكّر بصورة خاصّة في بورج لأنّ برغوغليو، أستاذ الآداب طوال ثمانية وعشرين عامًا في مدرسة الحبل بلا دنَس بِسانتا فِيه، عرفه شخصيًّا. كان يدرّس صفوف السنتَين الأخيرتَين من صفوف الثانويّة، ويحثُّ تلاميذَه على الكتابة الإبداعيّة. مررتُ بالتجربة نفسها تقريبًا حين كنتُ في سنّه بمعهد «ماسّيمو» في روما، إذ بنَيتُ «بومباكارتا»

---

[٨] من **دون كيخوتِه**، الفصل الثالث.

[٩] الأوّل (١٨٣٤-١٨٨٦) شاعر وصحافيّ وسياسيّ أرجنتينيّ. و«مارتين فييرّو» قصيدةٌ شعريّة ملحميّة. والثاني (١٨٨٦-١٩٤٥) شاعرٌ بيدمونتيّ. أمّا المؤلَّف الثالث فهو قصّة رحيل القرويّين البيدمونتيّين إلى السهل الأرجنتينيّ.

[١٠] الأوّل (١٨٧٦-١٩٤٠) كاتبٌ فرنسيّ، والثاني (١٨٩٧-١٩٨١) كاتبٌ إسبانيّ.

[١١] مؤلَّف *Adám Buenosayres*, *El banquete de Severo Arcángelo* و *Megafón o la guerra*.

(قنبلة ورقيّة)[١٢]. فأخبرتُ البابا عن هذه التجربة. وفي النهاية، طلبتُ إليه إخباري تجربته الخاصّة. فقال:

«كانت تجربة لا تخلو من المجازفة؛ فوجب عليّ أن أجد طريقة أجعل من خلالها تلاميذي يدرسون **لُو سِيد** (من أعمال پيار كورناي). إلّا أنّ الصغار لم يحبّوا ذلك، بل طلبوا قراءة غارسِيا لُورْكا. فقرّرتُ عندها أن يدرسوا **لو سِيد** في منازلهم، وتطرّقتُ إلى معالجة أعمال كتّابهم المفضّلين أثناء ساعات الدروس. وبالطبع، أرادوا قراءة القصص الشائكة، سواء الحديثة مثل *La casada infidel* **(الزوجة الخائنة)**، أو الكلاسيكيّة مثل *La Celestina* **(وسيطة الزواج)** لِفرناندو دي روخاس. وفي الحقيقة، إذ كانوا يطالعون تلك المؤلّفات التي جذبتهم عند الوهلة الأولى، كانوا يتذوّقون الأدب أو الشعر بطريقة أعَمّ، ثمّ ينتقلون إلى كتّابٍ آخرين. وكانت هذه خبرةً عظيمة عشتُها. حضّرتُ البرنامج ولكن بطريقة غير منتظمة، أيْ من دون أن أتبع المخطّط المتوقَّع، بل بحسب ترتيبٍ وردَني، طبيعيًّا، من قراءة آثار المؤلّفين. وقدن اسبني هذا الأسلوب في العمل جدًّا، إذ لم أكن أحبّذُ أن أطبّق برنامجًا ثابتًا، بل أفضّل بالحريّ أن أعرف إلى أن أريدُ الوصول على وجه التقريب. عندها بالضبط بدأتُ أجعل تلاميذي يؤلّفون ويكتبون. وفي النهاية، قرّرتُ أن أطلب إلى بُورج أن يقرأ روايتَيْن كتبهما تلاميذي. كنتُ أعرفُ أمينةَ سرّه التي علّمتني العزفَ على البيانو في الماضي. ففرح بورج للفكرة أشدّ الفرح، حتّى إنّه اقترح أن يؤلّفَ مقدّمةَ إحدى الروايتَيْن».

فقلتُ: «إذًا، قداسةَ البابا، هل الإبداعُ مهمٌّ في حياة الإنسان؟». أجاب: «هو مهمٌّ إلى حدٍّ بعيد عند اليسوعيّ. على كلّ يسوعيٍّ أن يكون مُبدِعًا».

---

[١٢] حرفيًّا: قنبلة من ورقٍ. إختبارٌ فنّيّ يرجع إلى نهاية التسعينيّات (١٩٩٠). أنظر الموقع (بالإيطاليّة): http: *bombacarta.com*.

حُدودٌ ومُختَبرات

عندما استضاف البابا فرنسيس اليسوعيّين المسؤولين عن مجلّة الـ *Civiltà Cattolica* ومُعاونيهم، كان قد سبقَ أن عرض ثلاثَ ميزاتٍ أساسيّة لنشاط اليسوعيّين الثقافيّ. ففي الرابع عشر من حزيران الماضي، في لقاءٍ سبق هذا اللقاء، أعلمني قداستُه سلَفًا بالميزات الثلاث تلك: الحوار، والتمييز، والحدود. وأصرَّ بشكلٍ خاصّ على الميزة الثالثة، ذاكرًا بولس السادس الذي، في خطابٍ شهير، قال عن اليسوعيّين: «في الكنيسة أجمع، حتّى بالظروف الأصعب والأحدث، على مفارق الأيديولوجيات وفي التباينات الاجتماعيّة، لطالما كان هناك، وما زال، مواجهة بين متطلّبات الإنسان الشائكة اللاهبة ورسالة الإنجيل الأبديّة، وهنا بالتحديد حضرَ اليسوعيّون، وما برِحوا».

فسألتُ البابا بعضَ التوضيح: «طلبتم إلينا أن نحذر إغراء التصرّف بالحدود؛ علينا أن نتوجّه إلى الحدود، لا أن نأتي بها إلينا لنصقلها قليلًا ونتصرّف بها». فإلامَ تستندون؟ وما المقصود بالتحديد من قولكم؟ لقد تطرّقت إلى هذا الموضوع مجموعةٌ من المجلّات التي تديرها الرهبانيّة اليسوعيّة: إلامَ تودّون دعوتها؟ وما هي الأولويّات التي يجب أن تتّخذَها؟».

«إنّ الكلمات المفاتيح الثلاث التي وجّهتُها إلى مجلّة الـ *Civiltà Cattolica* يمكنها أن تمتدَّ على جميع مجلّات الرهبانيّة، ولكلّ مجلّة طريقتها الخاصّة في التعبير طبعًا، بحسب طبيعتها وأهدافها. عندما أشدّد على مسألة الحدود، فإنّي أشيرُ إلى ضرورة أن يندمج الإنسانُ المثقّف بالميدان الذي يعمل فيه ويهتمّ بشؤونه. نحن معرّضون على الدوام لخطر العيش في مُختبر؛ إنّ إيماننا ليس إيمانًا مركّبًا، بل إيمانٌ يسيرُ على دربٍ طويلة، إيمانٌ تاريخيّ. لقد تجلّى اللهُ بصفته تاريخًا بحدّ ذاته، لا بصفته مجموعةً من الحقائق المجرَّدة. شخصيًّا أخشى المختبر لأنّنا نأخذ منه المشاكل ونجلبها إلى منازلنا لنتصرّف بها ونصقلها، خارج ميدانها الخاصّ. لا يجدر أن ننقل الحدود إلينا، بل علينا العيش عليها والتحلّي بالجرأة لمواجهتها.

«عندما نتحدّثُ عن مشاكل اجتماعيّة، يجبُ، أوّلًا، أن نجتمع لندرس مسألة الإدمان على المخدِّرات في منطقةٍ فقيرة «Villa miseria» - وهو اسمٌ يُطلَق على مدن الأكواخ في الأرجنتين – وثانيًا، أن نقصد المكان موضوع دراستنا، ونعيشَ فيه، فنفهم المشكلة من الداخل ونعالجها عن قُرب. وللأب أرّوبه رسالة مدهشة تتناول موضوع الفقر، وجّهها إلى «مراكز البحث والعمل الاجتماعيَّين» (CIAS)، وقد ذكر فيها بوضوح أنّه من المستحيل الحديث عن الفقر من دون اختباره شخصيًّا، وهذا عبر الاندماج المباشر بالأمكنة التي تشهدُه. أمّا كلمة «اندماج» فخطيرة، إذ إنّ بعض الرهبان اتّخذوها شِعارًا، وحصلت كوارث من جرّاء ذلك بسبب عدم قيامهم بالتمييز الضروريّ. ولكنّها تبقى كلمة في غاية الأهمّيّة.

«هناك حدودٌ كثيرة لا يُحصى عددُها. فلنفكّر في الراهبات اللواتي يعشنَ في أوساطٍ استشفائيّة: يعشن على الحدود. وأنا شاكرٌ جدًّا لإحداهنّ؛ فعندما قصدتُ المستشفى بسبب مشكلة في رئتي، أعطاني الطبيب كمّيّةً محدّدة من «البنِسِلين» و«الإستربتوميسين». أمّا الراهبة التي كانت حاضرة حينها في الصالة فزادت الكمّيّة ثلاثة أضعاف لأنّها كانت تعرف ما العمل في حالاتٍ مماثلة؛ إنّ وقوفها طوال النهار إلى جانب المرضى منحَها الفطنةَ والبصيرة الكافيتَين لعمل ما يلزَم. فالطبيب، وهو بدون شكّ ذو خبرةٍ وكفاءة، كان يمضي وقته في المختبَر الطبّيّ، وأمّا الراهبة فكانت تعيشُ على الحدود؛ عايشَتها طوال ساعات النهار. في حين أنّ نقل الحدود يعني حصر الكلام عليها بعيدًا عن واقعها، أي الانغلاق على المشكلة في المختبر. إنّ العملَ في المختبَر لَمُفيد بالطبع، ولكن، عندنا، على دراسة موضوعاتٍ كهذه أن تنطلقَ من خبرةٍ ملموسة».

كيف يفهمُ الإنسانُ ذاتَه؟

عندها سألتُ البابا إن كان ما قاله لتوّه يصلح أيضًا، وبأيّ شكل، لحدودٍ ثقافيّة مهمّة ألا وهي التحدّي الأنتروبولوجيّ الراهن. إنّ الأنتروبولوجيا التي

تبنّتها الكنيسةُ تقليديًّا، والأسلوب الذي عبّرت به عنها يبقيان مرجعًا ثابتًا، ثمرةَ حكمةٍ وخبرة قديمتَين. ومع ذلك، يبدو الإنسان الذي تُخاطبُه الكنيسة ما عاد يفهمهما أو يعتبرهما كافيَين. في رأيي، فليُعبِّرِ الإنسانُ عن ذاته بشكلٍ يختلف عنه في الماضي، بحسب أنماطٍ أخرى، تابعًا التغيّرات الكبيرة الطارئة على المجتمع، ومُستندًا إلى إدراكٍ أشمل لذاته....

في تلك اللحظة قام البابا إلى طاولته يتناول كتابَ فرضه. إنّه كتابُ فرضٍ باللاتينيّة، وقد بدا باليًا من شدّة الاستعمال. ففتحه على خدمة يوم الجمعة من الأسبوع السابع والعشرين من الزمن العاديّ. وقرأ لي فقرةً مستخرَجة من شرحٍ للقدّيس فِنقِنْطيوس الليرنْسيّ: «الأمرُ نفسه يطبَّق على عقائد الديانة المسيحيّة؛ فمبدأ تقدّم تلك العقائد يفترض ترسُّخَها على مرّ السنين، وتطوّرَها مع الوقت، ونموّها في الزمن».

وتابع قائلًا: «يقارنُ القدّيس فِنقِنْطيوس الليرنْسيّ بين تطوّر الإنسان البيولوجيّ وانتقال وديعة الإيمان من حقبة إلى أخرى: وهذه تنمو وتتوطّد على مرّ الزمن. بالتالي، فإنّ إدراكَ الإنسان يتغيّر مع الوقت ووَعيَه يتعمّقُ كذلك. فلنفكّر، بهذا الصدد، في الحقبة التي شهدت العبوديّة والحكم بالإعدام وقد كان يُقبَل بهما طبيعيًّا. إنّ دارسي الكتاب المقدّس واللاهوتيّين يساعدون الكنيسة على إنضاج حكمها الخاصّ. والعلوم الأخرى، بتطوّرها، تساعدُ الكنيسة في هذه العمليّة. وللكنيسة بعضُ القواعد والتعاليم الثانويّة التي كانت فعّالة في وقتها، إلّا أنّها، اليوم، فقدت كلّ قيمةٍ وكلَّ مغزًى. من الخطأ اعتبارُ عقيدة الكنيسة وحدةً متراصّة يجب الدفاعُ عنها من دون تمييز.

«على أيّ حال، في كلّ حقبةٍ زمنيّة، يسعى الإنسانُ إلى فهم ذاته والتعبير عنها على نحوٍ أفضل. ومع الوقت، نراه يغيّرُ طريقته في النظر إلى نفسه: هناك الإنسان الذي يعبّر عن ذاته ناحتًا تمثال النصر الشهير (الذي وُجد في جزيرة ساموتراقيا باليونان)، وآخر عبر إبداع لو كارافاج الفنّيّ، وشاغال، وأيضًا دالي. فالحقيقة تتجلّى بأشكالٍ مختلفة، وهذا، بالفعل، ضروريٌّ لنَقل رسالة الإنجيل في مغزاها الخالد.

«الإنسانُ في بحثٍ مستمرّ عن ذاته. ويمكنه، في بحثه هذا، أن يُخطئ. ونعرفُ أنّ الكنيسة عاشت حقباتٍ من العبقريّة، منها حقبة التومَويّة (نسبةً إلى القدّيس توما الأكوينيّ) على سبيل المثال. ولكنّها عاشت أيضًا، في المقابل، حقباتٍ من الانحطاط الفكريّ. فيجب ألّا نخلط بين عبقريّة التومَويّة والتوموّية المنحطَّة. في ما خصّني، ويا للأسف، فقد درستُ الفلسفةَ في كتبٍ من التوموّية المنحطّة. أمَّا الكنيسة، لتُدرك الإنسان، فعليها بالميل إلى العبقريّة، لا إلى الانحطاط.

«متى لا يكون التعبيرُ عن الفكر سليمًا؟ عندما يبعدُ الفكرُ عن الإنسان، عن الكائن البشريّ؛ عندما يخشاه أو يغرقُ في نفسه ويضيع. إنّه التفكير الخاطئ الذي يمكننا تصوّره، كما واجه أُليسيوس غناء جنّيّات البحر (وهو أحد أبطال الملحمة الإغريقيّة)، أو تانهاوسر وحوله عربدةٌ شهوانيّة متهتّكة، أو بارسيفال في الفصل الثاني من أوبرا فاغنِر، بمملكة كلينغسور. إنّ فكر الكنيسة، بهدف أن يطوّر تعليمه ويعمّقه، عليه أن يرجع إلى العبقريّة ويحاول أن يستشفّ، أكثر فأكثر، كيف يُدركُ الإنسانُ ذاته اليوم».

الصلاة

طرحتُ سؤالًا أخيرًا على البابا بشأن أسلوبه المفضّل في الصلاة.

«أتلو صلاةَ الفرض كلَّ صباح. وأحبّ الصلاة من خلال المزامير. بعدها أحتفل بالقدّاس. كما أصلّي المسبحة. وما أفضّله حقًّا هو السجود للقربان المقدّس في المساء، حتّى إن كنت شاردًا، أفكّر في أمرٍ آخر، بل حتّى إن كنتُ نعِسًا. بين السابعة والثامنة مساءً، أزورُ القربان المقدّس لأسجدَ له ساعةً من الوقت. وكذلك أصلّي، في سرّي، في صالة انتظار طبيب الأسنان، وفي أوقاتٍ أخرى من النهار.

«الصلاةُ تكون دائمًا، في نظري، صلاةَ تذكُّر؛ فهي تزخرُ بالصور والأحداث، بذاكرة تاريخي الخاصّ أو ما فعله الربّ في كنيسته أو في أبرشيّةٍ معيّنة. إنّها الذاكرة التي يتحدّث عنها القدّيس إغناطيوس في الأسبوع الأوّل من

الرياضات الروحيّة، لحظةَ لقاء المسيح المصلوب. وأنا أسأل نفسي: «ماذا فعلتُ في سبيل المسيح، وما أفعل في سبيل المسيح، وما الذي يجبُ أن أفعله في سبيل المسيح؟». وهي الذاكرة عينُها التي يتكلّم عليها في «المشاهدة لبُلوغ الحُبّ»، عندما يطلب أن يُعادَ إلى الذاكرة ما نِيلَ من الإحسانات (من خلقٍ وفِداءٍ وهباتٍ خاصّة). قبل أيّ شيء، أعرفُ أنّ الربّ يذكرُني. أمّا أنا فأستطيعُ نسيانَه، ولكن أعرف أنّه لن يفعل أبدًا. هو لا ينساني على الإطلاق. إنّ الذاكرة تؤسّس قلبَ كلّ يسوعيّ من الجذور؛ هي ذاكرةُ النعمة، الذاكرة الواردة في سفر تثنية الاشتراع، ذاكرة أعمال الله التي تشكّلُ أساسَ العهد بين الربّ وشعبه. إنّها الذاكرة التي تجعلُني ابنًا، وأبًا تجعلُني».

أحسستُ أنّ هذا الحوار قد يطول ويطول. ولكن، كما قال البابا، لا يجدرُ انتهاك الحدود. أمّا مجموع الساعات التي شهدت حوارنا فستٌّ منقسمة إلى ثلاثة لقاءات: أيّام ١٩ و٢٣ و٢٩ من شهر آب. فضّلتُ أن أرتّب أقواله من غير الإشارة إلى الاستطرادات المتنوّعة حفاظًا على تسلسل الأفكار. في الحقيقة، كان حوارُنا حديثًا أكثر منه مقابلة؛ فقد اتّصل السؤالُ بسواه من غير أيِّ تَقَيُّد بنقاطٍ أو أفكارٍ مُسبَقة جامدة. أمّا على الصعيد اللغويّ فكنّا ننتقلُ بلا انقطاعٍ من الإيطاليّة إلى الإسبانيّة. كما خَلا حديثُنا من كلّ طابعٍ آليٍّ تركيبيّ. لا بل نشأت الأجوبةُ من حوارٍ انطوى على سلسلةِ مَحاور سعيتُ، في هذه السطور، إلى أن أجمعها وأقدّمها، قدرَ الإمكان، في وحدةٍ مُتراصّة.